الفصل الثانى

الأحداث المُمَهِّدة لقيام دولة بنى زيرى وأوَّليَّات هذه الدولة. أيَّام زاوى بن زيرى وحَبُوس بن مَاكْسَن

٨ - الإصلاح العسكرى الذى أدخله المنصور.

قدوم بنى زيرى إلى الأندلس وقيام دُوَل الطوائف

وتوقَّع [المنصور] من أجناده الاتِّفاق على بعض ما يخلُّ بدولته، إذ كانوا صِنْفًا واحدًا، وتألُّبهم على معصية أمره، متى أمر بما أحبُّوا أو كرهوا؛ فنظر من ذلك بعين اليقظة، وسوَّل له رأيُه أن تكون أجنادُه قبائلَ مُخْتَلِفةً وأشْتاتًا مُتَفَرِّقةً: إن همَّ أحدُ الطوائف بخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفِئَات، مع احتياجه إلى تَقْويه عسكره، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلُّل بلاد العدوِّ وتدويخها متى شاء. فاستجلب من رؤساءِ البَرْبَر وحُماتها وأنجادها مَنْ بلغه فروسيَّتُه وشدَّتُه. وتسامَعَ الناسُ بالجهاد، فبادر إليه من شَرْق العِدْوة مَنْ كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاءَ به. وبهم كان يصول ابنُ أبى عامر على العدوِّ، وهُمْ كانوا العِدَّة فى الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء. وكان من أدْهاهم رأيًا وأبْعَدهم همَّةً زَاوِى بن زيرى عَمُّنا، وبعده حَبُوسُ بن مَاكْسَن ابنُ أخيه - رضى الله عنهما - ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة فى الأمر، والحُكْم على من دونهم من الأجناد.

فرتب ابنُ أبى عامر الرُّتَب، وأظهر هيبة الخلافة، وقمع الشِّرْك، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو؛ فعجز عن ذلك رعيَّة الأندلس، وشكوا إليه ضعفهم عن المُلاقاة وشُغْلهم بالغَزَوات عن عِمارة أرضهم؛ ولم يكن القومُ أهْلَ حَرْب. فقاطَعَهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم، ويعطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به مَنْ الأجناد من يكفيهم ذلك، على اتِّفاق ورضًى منهم. فضرب عليهم الأقطاع، وحصَّل فى الدواوين جميعَ أموال الناس. وكسرها [ق ٧ أ] عليهم [1] [وفرض] بينهم مالاً [يرتزق] منه الجيش. فبقيت تلك الأقطاع عليهم إلى [أن عمت الأندلس] عدَّة الثوَّار و [اتَّبعو] هم على تلك الآثار. [ودأبُه] فى ذلك إنَّما كان على ما وَصَفْناه.

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو فى الأصل. وأكملناه بما يتفق والمعنى.

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموال في الناضّ والطعام والمواشِي، يقسمون ذلك على المســاكين بكلّ بلدة؛ ولم يكن الوالي يقرب من ذلك إلّا ما يقيم به الجيش والدولة التي هي قيام العالم؛ ولولا حماية السلاطين للرَّعيَّة، وعزُّ دُوَلِهم، وذَبُّهم عنهم، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزَّ بهم قرارٌ. فكان ذلك كلّه عن سداد وصلاح وتأويل الخير. ولم تزل الأنْدَلُس قديمًا وحديثًا [عامــرةً] بالعُلَماء والفُقَهاء وأهل الدين، وإليهــم كانت الأمور مصروفة، إلّا ما يلزم المَـلِـك من خاصّته وعبيده وأجناده من الأخْذ من واحدٍ ودَفْعِه لآخر، لينخُل بذلك عســكره ويتخيَّــر أفْضَلَــه.... فيه للمســلمين كفاية وعُــدّة، إذ كانت الأموال التــي يعطونها من غير أصولهم، ولا اكتسابهم؛ إنّما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين. وأما ما كان بَيْنَهم من مظلمة أو قضيَّة وكلّ حُكْم يرجع للسُّنَّة، فإنّما كان لقاضي البلدة.

فلمــا تمّــت الدولة العامِريّة، وبقي النــاس لا إمام لهم، ثار كلُّ قائــد بمدينته، وتحصّنَ فــي حِصْنه بعد تَقْدِمة النظر لنفســه، واتّخاذه العســاكر، وادّخاره الأموال؛ فتنافَســوا على الدُّنيا، وطمع كلُّ واحد في الآخر.

وكذلك لا يصحُّ أمرٌ بين نَفْسَين؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة ؟.......إلّا الله....... من كان ظالمًا منهم يتعدّى...للقدر * [ق ٧ ب] الذي شاء ربُّنا لا شريك له.

٩ - استقرار بني زيري في إلْبيرة بناءً على طلب أهلها

فلما رأى ســلاطينُ صِنْهاجة وبنو زيري اقتطاعَ كلّ أمير في بَلَدٍ لنفســه، وذهابَ ما كانوا عليه من عز وأثَر، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز إلى العِدْوة، ليرجعوا إلى مُسْــتَقَرِّهم. فانعقدوا على ذلك بعد أمور يطول ذِكرُها، وظهور فســادٍ كثير أضرَبْنا عن إيراده كله، إذ كان مَقْصَدُنا وَصْفَ دولتنا خاصّةً. ولابُدَّ من ذِكْر لُمَع من غَيْرِها عند الاحتياج إليه.

وكان أهل إلْبيرة في بَســيط من الأرض، وكان بهم من الغشّ بَعضهم لبَعض ما أنَّ الرجل منهم ليتّخذ بإزاءِ داره مســجداً وحَمَّاماً فراراً من جاره، ولا يرجعون إلى طاعة ولا حُكْم والٍ. وكانوا مع هذا من أجْبَن الناس وأخوَفهم على مدينتهم، لا يستطيعون على قتال أحد، ولو كان الذُّباب، إلّا بمن يحميهم ويذبُّ عنهم. فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس، وأنّها أضرمت نارًا، وتوقّعوا أن يتخطّفهم الناس، وجّهوا إلى زاوي المذكور، شاكين ممّا هم فيه، ويقولون: «إن كُنْتُــمْ جاهَدْتُــم قبل اليوم، فهذا الجهاد آكَدُ عليكــم: أنْفُسٌ تحيونها، وديارٌ تحمونها، وعزّةٌ تأوون إليها! ونحن شــاركوكُمْ بأموالنا وأنفســنا: لكم منّا الأموال والسُّــكْنَى، ولَنا منكم الحماية والذبُّ عنّا!».

فقبل القومُ قَوْلَهم. واغتبطوا بمكانهم، واستبشــروا باستفتاح البلدة لغيرها، و... أنفسهم من الغدر لتَشَتُّتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون فئَةٍ [تحميهم] ، ولا جماعةٍ يتوقّع عُصْبَتُها. فأتوهم مُحْتَشِدين متألفين، قد انقطع إليهم كل من انتمى من البَرْبَر وتعلّق بهم. ونزلوا ساحتهم، وحَيَّوهم

بالتُحَف والأموال، وشـارَكوهم أحسن مُشـاركة، راضين بهم لا ساخطين. واستجابت لهم عند ذلك مَعَاقِلُ كثيرة، منها جَيَّان وأنظارها، وحِصْن آشَر * [ق ٨ أ] من الغَرْب.

فلما طاعت لهم البلاد، اجتمع رأيُهم على أن يتقارَعوا عليها؛ وكانت عادةً في البَرْبَر، كَي لا يأنفَ أحَدُهم ممَّا يصير إلى أخيه. فرجعت إلْبيرة في قرعة زَاوي، وحِصْنُ آشَـر مع جَيَّان فـي قرعة حَبُوس ابْن أخيه جَدِّنا - رحمــة الله عليهم - وتعاقَدَ جميعُهم على أنَّه، إنْ طرق العَدوُّ جِهَة صاحبه، يكون الآخَرُ يحميها بنفسه ورجاله.

١٠- رد الفعل الذى أحدثه فى الأندلس
قيام دولة بنى زيرى اختطاط غرناطة

فلمــا بصــر بفعلهم ثوَّار الأنْدَلُـس، جزعوا منهم، وحذروا أن تقوى شـوكَتُهم، فيطرقوهم ويحصِّلوا على بلادهم، لِمَا اختبروا من شدَّتهم ورأيهم.

فاجتمعوا على مُنازلتهم وقَصْدِهم إليهم بأحشادهم، كراهيَّةَ تَوْطيدِهم بذلك المكان وبُغْضِهم لجنْسِـهم. وقَدَّموا على أنفســهم إنســانًا سـمَّوه بالمُرْتَضَى، زعموا أنَّه قُرَشـيٌّ، كَيْ يستهِلُّوا بخلافته عامَّةَ الناس، وليرجع أمرُهم إليه. ونزل الجمع على مقربة منهم.

وكان قبل ذلك، لما بلغهم احتشادُهم وتألُّبهم، جمعوا أهلَ إلْبيرة المذكورة وقالوا لهم: «نحن لم نأتِ لفســاد دياركم، ولا قَهَرْناكم على استيطانِها؛ وإنَّما كان ذلك على اختياركم لنا. وهذه الفِئَات مُقبلةٌ لطلَبنا: فإن اسـتوثَقْنا منكم، دافَعْنا عنكم؛ وإن كانت الأخرى، فأعلمونا: نَمْض عنكــم على أجمل وَجْهٍ. فَلَنْ نعدم الخَيْرَ بسـيوفنا!» فأجابهم القــومُ: «اثبتوا في قتال عدوِّكم والدفاع عنَّا وعن أنفسكم! فنَحْنُ رعيَّتُكم الطائعة وأسيافكم القاطعة!» فقال لهم زاوي بن زيري: «إذا كان هذا رأيُكم، فأرَى من الصواب أن نرتحلَ عن هذه المدينة، ونختارَ لأنفسنا فيما يقرب منها مَعْقِلاً نأوي إليه بأهلينا وأموالنا * [ق ٨ ب] .... والحَرْبُ سِـجَال.....(١) يصيب عندها ولا يصاب؛ فقد يُظَنُّ عجزًا ! وقد أمر النبيُّ - عليه السـلام - عند احتشـاد المُشْركين على المدينة أن يُخَنْدَق حَوالَيْها، وسنَّ الحَزْمَ، مع مدِّ الوَحْي له؛ فكيف نَحْنُ؟» .

وقالوا لأهل إلْبيرة: «لَسْنا نكلِّفُكم(٢) من الأموال ما تسرَّعْتم به، إلَّا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشــود رجَّالةٍ منكم، تنفقون عليهــم ليكونوا بها لكم أعوانًا : تصرِّفونهم حَرَسـاً وجواسيسَ وما أشبه ذلك، وتحملون من تعرفون أنه يستطيع على الجُنْديَّة؛ أو تبنون لأنفســكم ســورًا يتوقَّــع بتَرْكه ثلمةٌ تدخل بها الداخلة عليكم. وأمَّا سِــوَى ذلـك ممَّا يخصُّنا نحن، فاعلمــوا أنــه لم نأتِ الأندلُس إلَّا وأجْلَبْنا مع أنفســنا من الأموال ما لا نحتاج فيه إلى أحَدٍ، بانين على الإقامة إن اضطَرَرْنا إليها؛ ولم نَأْتِها عن فاقةٍ ولا سعاية؛ إنَّما جئْناها رغبةً

(١) خرم في الأصل.

(٢) أصل: «نكلفوكم» .

فـي الجهـاد، وأن تكون كفايتُنا التي شـهرْنا بها على العدوّ دون سـائرهم، وأن نفنى باقى أعمارنـا فى طاعة الله، إلى أن دفعَتْنا الأقدار إلى ما تَرَوْن. ونَحْنُ لم نطلب أحَدًا، ولا تعدَّيْنا على بشـر! وهؤلاءِ باغُونَ متطاوِلُون. وَمَـنْ ﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[1]، ومن قُتِل دون ماله وأهله، فهو شهيدٌ!» .

فرضى القوم من قولهم، وزاد ذلك فيهم رغبةً. واتفَق رأىُ الجميع أن يخيِّروا لأنفُسهم جَبَلًا مُنيفًا ومَعْقِلًا شامخًا، يبنون فيه ديارهم، ويرحلون إليه بقلّتهم وكثرتهم، ويجعلونه القاعدة. ويخربون له إلْبيرة المذكورة *[ق ٩ أ] ....[2] فوقعت أعْيُنُهم على بسيطٍ جميل، قد جمع الأنهار والأشجار؛ وجميع ما يليه من البَلَد كلّه ينسقى من وادى[3] شَنِيلي المنحدِر من جَبَل شُلَيْر. وبصروا بالجبل الذى فيه الآن مدينةُ غَرْناطة موسِّطة للبَلَد كلّه: الفَحْص أمامَه، وجِهَتَىْ الزاويةَ والسَّطح بجنبتَيْه، ونظَرَ الجَبلِ وراءَه. فأفْتَنَهم المكان، وعملوا عليه كلَّ حساب، ورأوا أنّـه فى وَسَـط النَّعَم وجمهورِ الرعايا، وأنّ العدوّ، متـى نازَلَهُ، لم يطق له إحصاراً؛ ولا منعه داخلًا ولا خارجًا البتّة، فى كلٍّ ما يحتاج إليه الناسُ من المرافق. فشرعوا فى بُنيانه. وتولَّى كلُّ امْرِئٍ منهم إقامةَ داره من أنْدَلُسٍ وبَرْبَرٍ. وخربَتْ عند ذلك إلْبيرَة.

١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيرى وهزيمته

فلـم يكن إلاّ مُدَّةٌ يسـيرةٌ قبل أن يسـتكمل البُنيان، فإذا بالطوائف الباغيـة قد أقبلت طامعةً متألِّفـةً، يظنّـون أنّهـم، عند وصولهـم، لا ترتفد لهم سـاعةً. وقدَّموا كتاباً إلـى زَاوِى المذكور، يأمرونهم - بزعمهم - بالخروج أمامَهم على الأمان، وأن لا سبيل إلى البقاء، ولا يتركونهم بذلك الموضع: يُبْلُون بذلك العذْر عندهم، إذا ظفروا بعد هذا، أن لا يقيلوا لهم عثرةً.

فلمـا قُرِئَ علـى زاوى كتـابُ المُرْتَضَى المُقام لهـذا الناموس، جمع رجالـه، وخاطَبَ ابنَ اخيه حَبُوساً، يأمره بالقدوم عليه؛ فأتى فى جميع عسكره، ودخل المدينة على أعْينهم، غيـر مُجانـب لهم، ولا مُتكامن منهـم. واجتمع بغَرْناطة من صِنْهاجـة دون الألف من خيرة الخيرة؛ وكانت الطوائف الباغية فى نحو من أربعة ألف فارس.

فأمـر زاوى المذكـور [بكتب الجواب مـن] إملائه، وقال للكاتب: «لا تَزِدْ شـيئاً على ما أُمْلـى عليك *[ق ٩ ب] ! اكتُبْ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾[4]».

فلمـا ورد الجواب عليهم، عجبوا من دهائه، وقالـوا: «إنَّ هذا الرجل لم يأْبَ الطاعة لنا، إلّا أنّه واثِقٌ بنجدته وبمن معه، أو مُوَطِّنٌ على الموت، أو معجبٌ محيَّنٌ!» فزحفوا إليه.

(١) سورة الحج الآية ٦٠.
(٢) خرم نحو سطرين فى الأصل.
(٣) أصل: «واد» .
(٤) سورة التكاثر الآيات ١- ٤.

وهـشَّ القـومُ إلى مُلاقاتهم. فأمرهم زاوى بالثبوت وتَـرْكِ الطَّيْش، حتّى يبدو ما هم فيه. فقالـوا بأجمعهـم: «لا خَيْـرَ لنا فى غير مُلاقاتهـم، إذ قد أيْقَنَّا بأنَّهم لا ينفعنا معهم شـيءٌ إلّا الظفـر بهـم أو المـوت على أيديهم. ولا مَهْـرَبَ لنا فـى الأرض دون قتالهم! إن بقينا، لـم يبارحونا، وأحصرونا مع رعايانا إن لم يروا منّـا دفاعاً عنهم! فإمّا هُلكٌ وإمّا مُلك! وإنّ موتَنا فى مُلاقاتهم، بعد إبلاءِ العذْر، أحبُّ إلينا من تغلّبهم على مدينتنا!» .

فخرجـوا إليهم بأنفسٍ جريئة وعلى الموت مُوطّنة، وقلوبٍ حَنِقة وللموت طالبة. فلم يكن إلاّ كصَفْقةٍ بالكفّ على الكفّ حتّى ولّوهم الأدبار، وانهزموا أمامَهم مذعورين، يطلبون النجاة بحشاشـة أنفسـهم، لا يلوى منهم أحدٌ على صاحبه. واتّبعتْهم صِنْهاجةُ، وانبسـطت عليهم أيدى البَرْبَر، يقتلون منهم نهمةَ أنفسـهم، ويأخذون أموالهم وما تركوه من أسْـلِحتهم، حتّى امتلأتْ من ذلك أيديهم.

وكانـت تلـك الوقعة أوّلَ ظفر ثبتوا به فى أوطانهم. وهابَهم الناسُ، وانقادت لهم الرعايا. وتوطّد مُلْكُهم بغَرْناطة، وطاعت لهم أكثرُ بلاد أعدائهم المهزومين.

١٢- رحيل زاوى بن زيرى إلى إفريقية وموته هناك مسمومًا

وإنّ زاوى بن زيرى، لما بصر بهذه الحال، ورأى تألُّبَ أهل الأندَلُس عليهم وبُغْضهم لهم، عمل بذلك فِكْرَته وقال: «قد علمتُ وأيقنتُ أنّ هذا يكون [ق ١٠ أ] دأبَهم أبدًا، وإن كُنّا قد مُنحنا الظفر فى أوّل صفقة، لم نأمَنْهم على أنفسـنا وديارنا كلّ حين! وهُمْ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ، خَلَفَهُ أَلْـفٌ، مع مَيْل جنسِّـييهم من الرعايـا إليهم؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصـانُ مِنّا! ولا يموت لنا نَحْـنُ أحَد ونخلفه أبدًا!» فنظر من المكان بعين الحقيقة، وزَهِدَ فيه، مع ما عَلِمَهُ من وفاة بَادِيس ابـن المنصـور، والِدِ المُعِزّ، مَلِكِ القَيْرَوان، وأنّ ابنه وَلِىَ طفلاً صغيرًا؛ فشـرهت نفسـه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، للقَدَر الذى قدّره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه.

وكان لـزاوى بَنُـون، يعـدل كلّ واحد منهـم ببَدَنه مائة فـارس فى نجدته وقوّة بأسـه ورأيـه: منهم بُلُقّين بن زاوى. فأعاب هـذا الرأى على أبيه، وقال له «بَنَيْتَ لغَيْرك، فتكون لـه بمنزلة الخادم أو الأجير! لا تترك حاضـرًا لغائب! واثبتْ بمكانك الذى لم تحصّل عليه إلاّ بعد مشـقّةٍ وإشـرافٍ من نفسـك على الهلاك!» فقال زاوى: «نستخلف على المدينة من شـيوخ تَلْكاتَة الموثوق بهم فى المُهمّات مَنْ يثقّفها، وينوب منابى فيها، حتّى أباشِـرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفيّة دَوْلَتها. فإمّا أن يتهيّأ غَرَضُنا، وإلّا انصرَفْنا إلى مَرْكَزِنا» .

فتهيّأ للسـير على سـبيل المشـاركة للمُعِزّ، وأن يكون له بالأنْدَلُس عُدَّةً وعَبْداً، وما أشبه ذلك مما يُسْـتَعْمَل فى المُشارَكات واتّصال الأيدى على المُهمّات. واستَخْلَف من استخْلَفه من الشـيوخ ألاّ يدخلوا[1] عليه داخِلةً ولا يُسْـلموا[2] من أحواله شيئًا لابن أخيه ولأحَدٍ من خَلْق

(١) أصل: «يدخلون» .

(٢) أصل: «يسلمون» .

الله، *[ق ١٠ ب] يُريهم في مسيره(١) النظر لهم والسعْيَ فيما هو خيرٌ من موطنهم ذلك.

ثمَّ خرج عن البلدة كأنّه يُقاد قوداً؛ فلم يخرج منها بمرحلة إلاّ وكُتُبُ مُسْتَخْلفيه سائرةٌ إلى حَبُوس بن مَاكْسَن، يسفهون رأى زاوى ويقولون له أن يُعَجِّل بالقدوم إلى البلد، وأنّه أحَقّ بولايته من غيره، قبل أن يطمع فيه من لا يرضونه، أو يَشْرَهَ إليه من فَغَرَ فَاهُ إليه بزوال زاوى عنه. فلم يتأخّر عنه إقبالُ حَبُوس. وتَلقَّتْهُ(٢) صِنْهاجة بالطاعة والانقياد لمُلْكه. وسمع بخبَره زاوى، وهو فى طريقه على مقربة من غرناطة؛ وندم على ما كان منه. ولامَهُ وَلَدُه على ذلك.

ويُذْكَر أنّه لما وصل إلى القَيْرُوان، وأَحَسَّ بمَذْهَبه بعضُ وزراءِ المُعِزّ نكروه وخافوا دواخِلَه عليهم، وأن يكدِّر ماصفا. ورأوا أنّ ولاية المُعِزّ على طفوليَّته، وعيشهم معه، وتحكمَهم عليه، أخَفُّ عليهم من تَوْليةِ داهيةٍ مثل زاوى، لا يملكون معه من قِطْمِير. فَدُسَّ إليه مَنْ سَقاهُ السُّمّ. ومات بتلك البلاد.

١٣ - إمارة حَبُوس بن ماكْسَن

وصَفَا الأمْرُ لحَبُوس بن مَاكْسِن، وسار بأجْمَل سيرة وأعْدَل طريقة.

وصرف أحكامه أجمع إلى قُضاة البلاد، وتعفَّف عن كلّ شيء؛ وجَمُدَتْ يَدُه على الحرام والأموال. فأحبَّه الناسُ، وأمِنَتْ معه السُّبُلُ، وقلّ الفسادُ، وارتفع الجورُ.

وكان الرجلُ مُحِبًّا في أقاربِه وبنى عمِّه، لم يستأثر عليهم بشيء.

وقسم عليهم البلاد. وأمر كلّ قائد أن ينتخب من الرجال عددًا يليق به وما يكون على قدر ما أعطاه من الجهات، وأنهى إليهم: «إلاّ فائدة تفيدونى بها تُنَفّق عندى من مال أو تحفة غير الاستكثار من الأجناد؛ فَمَتَى دعوتُ *[ق ١١ أ] أحَدَكم لمُهِمَّةٍ، وبَصَرْتُ عسكرَه أكثر عددًا وأجود خبرةً، فذاك الأثيرُ عندنا، والحَظِىُّ لَدَيْنا!» فسارَعَ الأجنادُ إلى اللحقة، وزاد الجيش فى أيّامه؛ وقامت هِمَمُ الرجال على ساق، وتنافسوا على خصال الحروب ومقاطع الشجعان.

وكان بنو عمِّه كلّ إنسان منهم سُلْطانًا فى ناحِيَته، قد حاز جِهَته وانفراد بعسكره. وكان حَبُوس – رحمه الله – لا ينفرد برأى دُونَهم، ولا يقطع مقطعًا إلاّ بمشورتهم، حتّى إنّهم ليجتمعون معه للحُكْم فى موضِع خارِجَ قصره دون السير إليه؛ وذلك استحسانًا منه، كَيْ لا يحصل عليهم ما يقع فى أنْفسهم منه ذلّة ولا ينقمون عليه. وكان رفيقًا بهم، مُحْسِنًا إليهم، مؤلِّفًا لكَلِمتهم. وكان من قوله: «إنّ صِنْهاجة عندى مثل الأسنان فى الفم: إن عدمتُ منهم واحِدًا، لا نخلفه أبدًا!» فكانت له بهم الصولة على الناس والاستطالة على العدوّ. وما كان كلّ أحَدٍ يرى تَرْكَه غنيمةً والسلامة منه من أعظم الفائدة، فضلاً أن يطمع فى شىء من جِهاته، أو تُحَدِّثَه نفسُه بغزو بعض بلاده.

(١) أصل «مسيرهم».

(٢) أصل: «وتلقوه».

١٤- المؤمرات التى دُبِرت لإسناد الإمارة إلى يَدِّير بن حُباسة.

موت حَبُوس

وكان لحَبُوس بن ماكْسَن – رحمه الله – ابْنُ أَخٍ يُعْرَف يَدَّيْر بن حُبَاسة. وكان عنده آثَرَ من وَلَده، للّذى كان يرَى من نباهته، وإقباله على قَرَاءَة الكُتُب ومُجالَسة الفُقَهاء؛ وهو الذى كان يلقى به الرُّسُل، ويصرفه فى المُهِمّات. وكان بارًّا بحَبُوس وبجميع أهل المملكة. وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتِبُ حَبُوس المعروف بأبى العبّاس، لِماَ يرَى من وتواضُعه وحُسْن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب. وطار له بذلك نامُوسٌ كبيرٌ عند * [ق ١١ ب] صِنْهاجة حتّى آثَرُوه على غيره.

وكان بَادِيس بن حَبُوس جَدُنا – رحمه الله – كبير النفس، عالى الهِمّة، حادَّ المزاج، لا يستطيع أَحَدٌ [أن] يَمْخرَق عليه فى أمْر من الأمور، ولا ينكسر لأَحَدٍ من بنى عَمه، ثِقَةً منه بسعادته؛ وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول لا يَعْنيه ذلك ولا يزيد فى أيَّامه. وكان ذلك كلّه منه فى حزم ورَوِيَّة، لا يفسد جانبًا حتّى يصلح آخَرَ، ويضرب بعضهم ببعض. فوجست أَنْفُسُ البعض منه، وأُشْربوا هَيْبته ومخافته، وتوقّعوا، إن صار الأمر إليه، أن يجرِّبهم على خلاف ما عهدوه من أبيه. فأضمرا أكثرُهم لهُ الغوائل، وآثَرُوا عليه يَدِّيْر المذكور، وتمنّوا بولايته: كلُّ ذلك لشقائهم وتمام أَيّام سعادتهم! وسَمِعْتُ المُظَفّرَ بادِيس – رحمه الله – يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه ويقول: «كنتُ واقفًا بين يدى حَبُوس أبى – رحمه الله– حتّى انْتُدِبَ إليه من شيوخ صِنْهاجة من قال له: «إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولّى على أمرك مَنْ يخلفك ممَّن تُرْجَى بَرَكَتُهُ للمسلمين ولبنى عمّك! فإنَّ الموت يغدو ويروح!» فقال أبو العبَّاس كاتِبُه: «ليس يصلح لهذا الأمر إلّا يَدَّيْر، لطهارته، وعفافه، ومحبَّته فى الناس!» وكان فى الجُمْلة من شيوخهم صديقٌ لى اسْمُه فِرْقَان، قد اصطنَعْتُه واستملْتُه؛ فسمعتُ ردَّه على أبى العبّاس، وهو يقول له: «ما ينبغى لك أن تتكلّم بهذا! كيف يُقَدَّم للأمْر غَيْرُ ابنه، وهو مستطلعٌ بجميع الأمور؛ وقولُك أنْتَ وقولُ غَيْرك باطِل! كأنّى، والله، أرَى موتَ حَبُوس وولايةَ بادِيس من بعده، وإنَّ يَدَّيْرَ سيتحامَق على باديس، ويظفر به، ويقتله!» قال باديس: «فسرّنى * [ق ١٢ أ] كلامُه، وأعطيتُه عليها ألف دينار».

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقان. ثمّ إنّه اطّبَى من وجوه صِنْهاجة أقوامًا، ووعدهم بالإحسان، وسعى بجهده على حلّ تلك الصفقة، إلى أن كلّموا أباه فى تَوْليته. فرضى ذلك، وأمر الناس بانصياعهم له. وزجر يَدَّيْر فى ملأٍ من الناس، وقال له: «لا تشره ما ليس لك، يا ابن حُبَاسة!» يُخاطِبه بهذا اللفظ.

فوقع من ذلك فى نفس يَدَّيْر عداوة مجدَّدة لباديس؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكابرتهِ وإجماع الجماعات عليه، وشتّت أقوامًا من صِنْهاجة، حتى صاروا معه. ووَالَى بُلُقّين

شـقِيقَ باديس – رحمهما الله – ؛ وكان من أهل البأْس والنجدة، غير أنَّه لم يكن له معرفةٌ بسياسة المُلْك.

ولمّا رأى بعضُ أصحابه موالاته لبُلُكّين وسـعْيَه له فى ظاهر الأمر، لامَهُ على ذلك، وقال له: «إن كنتَ لا تسعَى لنفسك، ويكون من سَعْيك لغَيْرك ما نَرَى[1]؛ فباديسُ أحقُّ بذلك، الذى هو الأكبر والأسعد، وله الرياسة!» فكان جوابُه لقائل ذلك: «ليس سَعْى لبُلَكّين إيثارًا منّى له على نفسى، غَيْرَ أنَّه صحيحُ النيَّة، غَيْرُ حاذِقٍ بمكايد المملكة؛ وهو شقيقُ الذى أطْلُبُ، ولن أَجِدَ لطلَبه أقْدَرَ على ضرّه من أخيه! فإنّما أنا أصيدُ به! فلو اتّسـقت لى الأمور، وتهيَّأَ قَتْلُ باديس على يدى أخيه، كان أمْرُ بُلُكّين من بَعْده هيّنًا، وخَلْعُه مُمْكِنًا!».

فكان أبَدًا يحضُّه على قتل أخيه، ويُريه السـعْىَ له. وكان الأَخُ فى ذلك مُتَشـبِّثًا فى أمره مُشْفِقًا على أخيه، إلى أن تُوفِّى حَبُوس بن ماكْسَن – رحمه الله.

* * *

(١) أصل: «نرواه».